مع الصحابة والتابعين

١

ابو طالب ناصر الرسول

ترجمه: كمال السيد

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

سبق لمؤسسة أنصاريان شرف تقديم سلسلة عن سيرة أهل البيت (عليهم السلام) الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً ، و لقد حظيت السلسلة باستقبال من فتيان الإسلام ممّا شجّع على تقديم سلسلة أخرى عن صحابة وقفوا مع النبي (صلى الله عليه و آله) و كانوا بحق رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

و هي إذ تقدّم هذه السلسلة إلى مكتبة الفتى المسلم إنما تأمل الإقتداء بأولئك الرجال الأفذاذ الذين أسهموا في صنع مجد الإسلام و رفع رايته عالياً ، و أضاءوا الطريق للأجيال .

مؤسسة أنصاريان : إيران ، قم ، شارع الشهداء

صندوق البريد : ايران / قم : ١٨٧ ، الهاتف : ٧٤١٧٤٤

عام الفيل

في عام ٥٧٠ ميلادي هاجمت جيوش الأحباش بقيادة أبرهة مدينة مكّة المكّرمة تريد هدم الكعبة .

كان عبد المطلب جدّ سيدنا محمد (صلى الله عليه و آله) سيد مكّة آنذاك فطاف حول الكعبة و دعا الله سبحانه أن لا يمكّن " الغزاة " من هدم البيت الذي بناه إبراهيم الخليل (عليه السَّلام) و ابنه إسماعيل لعبادة الله وحده .

و استجاب الله تعالى دعاء عبد المطلب ، فما أن تقدّمت الفيلة و الجنود لهدم الكعبة حتى ظهرت في الأُفق طيور أبابيل .

كانت تحمل في مناقيرها حصى مشتعلة و راحت الطيور تقصف الجيش ، و تمزّق الغزاة حول الكعبة و ظهرت قدرة الله سبحانه و وجاهة عبد المطلب ، و سمّي هذا العام بعام الفيل و هو العام الذي ولد فيه سيدنا محمد (صلى الله عليه و آله) و كان عمر أبي طالب آنذاك ثلاثين سنة ، و قد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم في سورة الفيل في قوله تعالى :



بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ؟

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ .

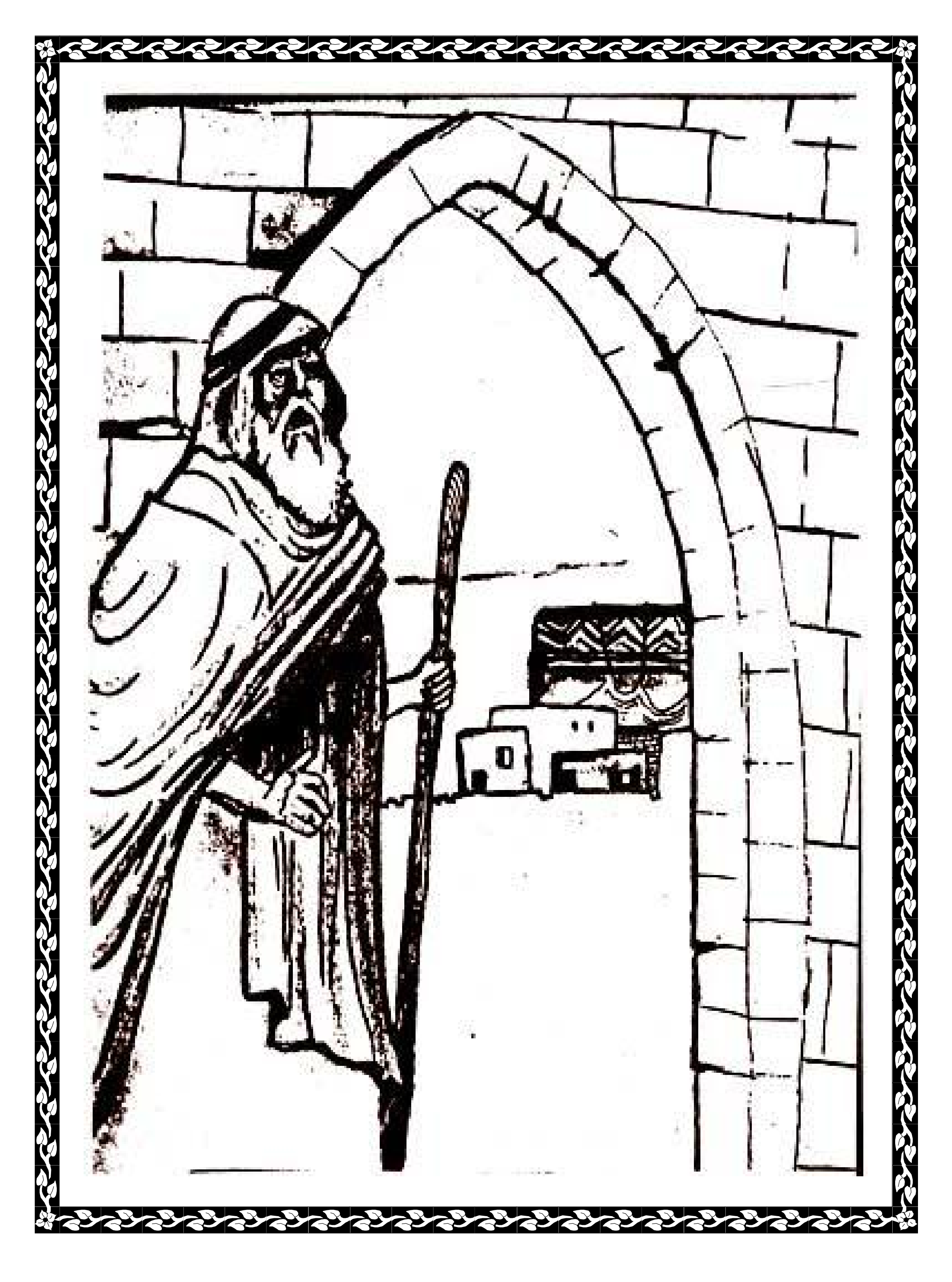
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ .

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ .

عبد المطلب

كان لعبد المطلب الذي حفر بئر " زمزم " عشرة بنين أحدهم عبد الله و هو أبو النبي ، و آخر اسمه " أبو طالب " و هو عمّه .

كان سيدنا محمد (صلى الله عليه و آله) يتيماً مات أبوه عبد الله و هو ما يزال جنيناً في بطن أُمه ثم ماتت أُمُّه و كان له من العمر خمس سنين ، فكفله جدّه عبد المطلب و كان يحبّه حبّاً كثيراً ، و يتوسم فيه النبوّة .



كان عبد المطلب حنيفياً على دين إبراهيم و إسماعيل ، و كان يوصي أولاده بمكارم الأخلاق .

و في فراش الموت قال لأولاده : " إن من صلبي لنبيّاً ، فمن أدركه فليؤمن به " .

ثم التفت إلى ولده أبي طالب و همس في أُذنه :

ـــ يا أبا طالب إنّ لمحمّد شأناً عظيماً ، فانصره بيدك و لسانك .

الكفيل

كان عمر سيدنا محمد (صلى الله عليه و آله) ثمانية أعوام عندما مات جدّه عبد المطلب فانتقل إلى كفالة عمّه أبي طالب .

و من ذلك الوقت بدأ عهد جديد .

و أبو طالب هو عبد مناف الذي اشتهر بشيخ البطحاء و أُمه فاطمة بنت عمرو من بني مخزوم .

عاش سيدنا محمد في كنف عمّه و كان يجد في أحضانه الدفء و المحبّة ، و كانت فاطمة بنت أسد و هي زوجة عمّه هي الأُخرى تغمره

بالحبّ و الرعاية و تقدّمه على سائر أولادها ، و في مثل هذه الأُسرة الكريمة نشأ سيدنا محمد .

كان حبّ أبي طالب لابن أخيه يزداد مع مرور الأيام لما يراه من أخلاقه الكريمة و أدبه العظيم .

فإذا حضر الطعام مثلاً كان الصبي اليتيم يمدّ يده بأدب و يقول بسم الله فإذا انتهى قال : الحمد لله .

ذات مرّة افتقد " أبو طالب " ابن أخيه محمد على المائدة فرفع يده عن الطعام و قال : لا آكل حتى يأتي ابني ، فإذا حضر ناوله وعاء اللبن ليشرب ثم يشرب سائر الأولاد الواحد بعد الآخر فيرتوون جميعاً ، و يعجب العمّ لذلك فيلتفت إلى ابن أخيه و يقول :

ـــ إنّك لمبارك يا محمّد .

البشارة

و يسمع أبو طالب من أهل الكتاب بشارات تتحدث عن قرب ظهور نبي أطلّ زمانه ، فيزداد رعاية لابن أخيه و يتوسّم فيه النبوة ، فكان لا يفارقه .

و عندما أراد أبو طالب الذهاب في رحلة تجارية إلى الشام إصطحب معه سيدنا محمداً و كان عمره آنذاك تسع سنين و في مدينة بُصرى التي تقع على طريق القوافل التجارية كان هناك دير يسكن فيه راهب نصراني اسمه بَحيرا ، كان هو الآخر يترقّب ظهور نبي جديد قرب زمانه و عندما وقعت عيناه على محمد وجد في صفاته و ملامحه ما يبشّر بأنّه النبي الموعود .

و راح الراهب يتأمل في وجه الصبي المكّي في خشوع و بشارة السيد المسيح تتردّد في أعماقه .

سأل الراهب عن اسم الصبي فقال أبو طالب : اسمه محمد .

و يزداد الراهب خشوعاً لهذا الإسم الكريم فيقول لأبي طالب :

ـــ عد إلى مكّة و احذر على ابن أخيك من اليهود فانّه كائن له شأن عظيم .

و عاد أبو طالب إلى مكّة و هو أكثر حبّاً لمحمّد و أكثر حرصاً على سلامته .

الصبي المبارك

و تمرّ سنوات ، و أصاب القحط مكّة و ما حولها من القرى ، و جاء الناس إلى شيخ البطحاء يطلبون منه " الإستسقاء " .

ــ يا أبا طالب ، أقْحَطَ الوادي و أجَدَبَ العيال ، فهلّم فاستسق لنا .

و عندما خرج أبو طالب كان أمله بالله سبحانه كبيراً و لكنّه لم ينس أن يأخذ معه ابن أخيه محمّداً .

وقف أبو طالب إلى جانب الكعبة و معه محمّد ، كان قلب الصبي يتدفق رحمة للناس ، و دعا أبو طالب إله إبراهيم و إسماعيل أن يرسل المطر مدراراً .

و نظر محمّد إلى السماء ، و مرّ وقت ، و امتلأت السماء بالسحاب و اشتعلت البروق و دوّى الرعد و انهمر المطر غزيزاً و سالت الأودية .

و عاد الناس فرحين يشكرون الله على نعمة المطر و الخصب , و عاد أبو طالب و هو أكثر حبّاً لابن أخيه .

و تمرّ الأعوام و يبلغ محمّد سنّ الشباب فإذا هو مثال عظيم لكلّ الأخلاق الإنسانية حتى عرف بالصادق الأمين .

كان أبو طالب لا يكره شيئاً مثلما يكره الظلم ، و لا يحبّ أحداً مثلما يحبّ المظلومين .

لهذا كان سيدنا محمّد يحبّ أبا طالب .

ذات مرّة وقعت الحرب بين قبيلة " كنانة " و قبيلة " قيس " و كانت قبيلة قيس هي المعتدية .

جاء رجال من قبيلة كنانة و قالوا لأبي طالب :

ـــ يا بن مطعم الطير و ساقي الحجيج ، لا تغب عنّا فإنّا نرى بحضورك الغلبة و الظفر .

فأجابهم أبو طالب :

ـــ إذا اجتنبتم الظلم و العدوان و القطيعة و البهتان فإني لا أغيب عنكم فعاهدوه على ذلك .

و وقف سيّدنا محمّد (صلى الله عليه و آله) إلى جانب عمّه مع كنانة و كان النصر لهم .

و كان بعض أهل مكّة يعتدون على حجّاج بيت الله ، فقد جاء رجل من قبيلة خثعم مع ابنته لحجّ بيت الله ، فقام شاب من أهل مكّة و أخذ الفتاة بالقوّة .

فصاح الرجل الخثعمي : من ينصرني ؟

فأجابه بعضهم : عليك بحلف الفضول .

و انطلق الرجال إلى أبي طالب .

و حلف الفضول تبنّاه أبو طالب ، و هو عهد بين رجال من أهل مكّة اتفقوا فيه على نصرة المظلوم و الانتصاف من الظالم .

و عندما توجّه الخثعمي إليهم طالباً العون ، هبّ رجال مسلّحون إلى بيت ذلك الشاب و هددوه ، و أعادوا الفتاة إلى أبيها ، و كان سيدنا محمّد من ضمن أعضاء الحلف .

الزواج السعيد

كان أبو طالب كثير العيال و ينفق على المحتاجين ، فأصبح في ضائقة .

و شعر سيدنا محمّد بأن عليه أن ينهض بواجبه ، خاصة و قد

عرضت عليه خديجة _ و كانت امرأة ثريّة _ أن يذهب في تجارتها إلى الشام .

و كانت الرحلة ناجحة تجارياً ، و أدّى سيدنا محمّد الأمانة إلى أهلها ممّا جعل خديجة تفكّر في أمره ، فعرضت عليه الزواج .

و قد استبشر أبو طالب بهذا الزواج و ذهب بنفسه يخطب خديجة من أهلها ، و كان معه رجال من بني هاشم فيهم الحمزة بن عبد المطلب عمّ سيدنا محمّد .

قال أبو طالب : " الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم و ذريّة إسماعيل ، و جعل لنا بيتاً محجوباً و حرماً آمناً ، و بارك لنا في بلدنا .

و إن ابن أخي محمّد بن عبد الله لا يوازن برجل من قريش إلاّ رجح عليه و لا يقاس بأحد إلاّ كان أعظم منه ، و إن كان في المال قل ، فإن المال رزق حائل و ظلّ زائل ، و له في خديجة رغبة ، و لها فيه رغبة ، و صداق ما سألتموه من مالي ، و له و الله نبأ عظيم " .

جبريل

و تمرّ الأعوام و يبلغ أبو طالب من العمر سبعين سنة ، و كان عمر

سيدنا محمّد أربعين عاماً ، و كان يذهب إلى غار حراء كعادته كلّ عام .

و في ذلك العام هبط الوحي من السماء و سمع سيدنا محمّد هاتفاً يقول له :

ــ اقرأ ! أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ و ربّك الكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم . . .

ثم قال : يا محمّد! أنت رسول الله و أنا جبريل .

و عاد محمّد من غار حراء يحمل معه رسالة السماء .

فآمنت خديجة زوجته ، و آمن ابن عمّه علي بن أبي طالب .

و ذات يوم و عندما كان سيدنا محمّد (صلى الله عليه و آله) يصلّي و خلفه علي ، جاء أبو طالب فقال بعطف :

ــ ماذا تصنعان يابن أخي ؟

فقال النبي (صلى الله عليه و آله) :

ــ نصلي لله على دين الإسلام .

فقال أبو طالب و عيناه تشعّان رضىً :

ــ ما بالذي تصنعان بأس . ثم قال لابنه علي :

ــ يا علي الزم ابن عمّك . . انّه لا يدعوك إلاّ لخير .


لا اله الا الله

في منزل النبي (صلى الله عليه و آله)

و بعد مدّة هبط جبريل يحمل له أمر الله " و انذر عشيرتك الأقربين و اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين " .

و أمر رسول الله عليّاً و كان عمره يومذاك عشرة أعوام أن يدعو له عشيرته أي بني هاشم ، و جاء أبو طالب و أبو لهب و غيرهما .

و بعد أن تناول الجميع الطعام قال سيدنا محمّد :

ــ ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بمثل ما جئتكم به . لقد جئتكم بخير الدنيا و الآخرة . .

ثم عرض عليهم دين الإسلام .

نهض أبو لهب و قال بحقد :

ــ لقد سحركم محمّد .

فقال أبو طالب بغضب :

ــ اسكت ما أنت و هذا .

و التفت إلى سيدنا محمّد و قال :

ــ قم و تكلّم بما تحبّ و بلِّغ رسالة ربّك فأنت الصادق الأمين .

و عندها نهض سيدنا محمّد و قال :

ـــ لقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني (ينصرني) على هذا الأمر فيكون أخي و وصيي و خليفتي فيكم بعدي .

فسكت الجميع .

فاندفع علي يقول بحماس الشباب :

ـــ أنا يا رسول الله .

و فرح النبي و عانق ابن عمّه الصغير و هو يبكي .

نهض بنو هاشم و كان أبو لهب يقهقه ساخراً و يقول لأبي طالب :

ـــ لقد أمرك محمّد أن تسمع لابنك و تطيع .

و لكن أبا طالب لم يكترث له بل نظر إليه غاضباً .

و خاطب ابن أخيه بعطف :

ـــ امض لما أمرت به ، فو الله لا أزال أحوطك و أمنعك .

و ينظر سيدنا محمّد إلى عمّه بتقدير فهو يشعر بالقوّة مادام سيد مكّة إلى جانبه .

الناصر

و بالرغم من ضعف الشيخوخة فقد وقف أبو طالب بقوّة يدافع عن

رسالة محمّد ، و كان في الخط الأول في الصراع مع مشركي قريش .

و يدخل عدد كبير من أهل مكّة في دين الله ضاربين عرض الجدار عبادة الأوثان و الأصنام و تهديدات جبابرة قريش .

و ذات يوم جاء زعماء المشركين إلى أبي طالب و كان طريح الفراش و قالوا بغيظ :

ـــ يا أبا طالب ! أكفف عنّا ابن أخيك ، فانه قد سفّه أحلامنا و سبّ آلهتنا .

و يحزن أبو طالب من أجل قومه لأنّهم لا يريدون الإصغاء إلى صوت الحقّ : فقال لهم :

ـــ أمهلوني حتى أُكلّمه .

و أخبر أبو طالب سيدنا محمّدا بما قاله زعماء قريش ، فقال النبي (صلى الله عليه و آله) باحترام :

ـــ يا عم ! لا أستطيع أن أعصي أمر ربّي .

فقال أبو جهل و هو أكثرهم حقداً :

ـــ سوف نعطيه كلّ ما يريد من الأموال بل نجعله ملكاً علينا إذا شاء .

فقال النبي أنا لا أُريد شيئاً سوى كلمة واحدة .

فقال أبو جهل : ما هي ؟ لنعطيك ها و عشراً من أمثالها .

فقال سيدنا محمّد :

ــ قولوا لا إله إلاّ الله .

فانفجر أبو جهل غيظاً .

ــ اسأل غيرها .

فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

ــ لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غير هذا .

و ساد التوتر ، و نهض المشركون و هم يتوعدون سيدنا محمّداً و يهدّدونه ، فقال أبو طالب لسيدنا محمّد :

ــ أبقِ على نفسك و لا تحمّلني من الأمر ما لا أُطيق .

أجاب النبي و قد دمعت عيناه :

ــ يا عماه و الله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

نهض النبي (صلى الله عليه و آله) و هو يمسح دموعه ، فناداه أبو طالب برقَة و قال :

ــ أُدن مني يا ابن أخي .

فدنا سيدنا محمّد منه ، فقبّله عمّه و قال :

ـــ اذهب يابن أخي و قل ما تشاء ، فو الله لا أُسلمك لشيء أبداً .

ثم راح ينشد متحدّياً جبروت قريش .

ـــ و الله لن يصلوا إليك بجمعهم *** حتى أوسّد في التراب دفينا

نور الإسلام

و مضى سيدنا محمّد يبشّر بالدين الجديد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

و مرّة أُخرى جاء جبابرة قريش إلى أبي طالب و خاطبوه بأسلوب آخر قائلين :

ـــ يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد (أخو خالد بن الوليد) أنهد فتى في قريش و أجمله فخذه إليك و سلّمنا محمّداً لنقتله .

و أسف أبو طالب لقومه و هم يفكّرون بهذه الطريقة فأجابهم مستنكراً :

ـــ أتعطوني ابنكم أغذوه لكم و أعطيكم ابني لتقتلوه . . هذا و الله لا يكون أبداً أرأيتم ناقة تحنّ إلى غير ولدها ؟!

و اشتد أذى المشركين و راحوا يعذبون المسلمين ، و خشي أبو طالب أن يمتد أذاهم إلى سيدنا محمّد ، فاستدعى بني هاشم ، و دعاهم إلى حماية النبي (صلى الله عليه و آله) و المحافظة عليه ، فاستجابوا له ما عدا أبي لهب .

و سمع أبو طالب بأن أبا جهل و غيره من المشركين يحاولون قتل سيدنا محمد فمضى يبحث عنه ، و كان معه جعفر ابنه و انطلق إلى تلال مكة و راح يبحث عنه هنا و هناك ، فوجده يصلّي لله و عليّ إلى يمينه ، و كان منظر سيدنا محمد وحيداً و ليس معه أحد سوى عليّ يبعث على الحزن ، فأراد أبو طالب أن يشدّ من عضد ابن أخيه فالتفت إلى ابنه جعفر و قال :

ـــ صِل جناح ابن عمّك .

أي صلِّ إلى يساره ليشعر بالعزم و القوّة و الثقة أكثر .

و وقف جعفر يصلّي مع سيدنا محمّد و أخيه علي لله خالق السماوات و الأرض ربّ العالمين .

و مرّة اُخرى افتقد أبو طالب سيدنا محمداً و انتظر عودته فلم يعد ، فراح يبحث عنه . و ذهب إلى الأمكنة التي يتردّد إليها سيدنا محمّد فلم يجده .

فعاد و جمع شباب بني هاشم و قال لهم :

ــ ليأخذ كلّ واحد منكم حديدة صارمة و اتبعوني فإذا دخلت المسجد فليجلس كلّ واحد منكم إلى جانب زعيم من زعمائهم و ليقتله إذا تبيّن أن محمّداً قد قتل .

و امتثل شبّان بني هاشم و ترصّد كلّ منهم أحد المشركين .

و جلس أبو طالب ينتظر ، و في الأثناء جاء زيد بن حارثة و أخبره بسلامة النبي .

و هنا أعلن أبو طالب عن خطّته إذا تعرّض أحدهم إلى حياة النبي بسوء .

و شعر المشركين بالذلّ ، و أطرق أبو جهل برأسه و قد أصفرّ وجهه خوفاً .

و كان بعض المشركين يحرّضون صبيانهم و عبيدهم على إيذاء سيدنا محمّد .

و ذات يوم كان النبي (صلى الله عليه و آله) يصلّي فجاء غلام و ألقى القاذورات على كتفيه و هو ساجد ، و راح المشركون يقهقهون .

شعر سيدنا محمد بالألم يعتصر قلبه فذهب إلى عمّه شاكياً ، و غضب أبو طالب ، فاخترط سيفه و جاء إليهم و أمر أبو طالب غلامه أن يأخذ تلك الأوساخ و يلطّخ بها وجوههم الواحد بعد الآخر .

فقالوا : حسبك هذا يا أبا طالب .

الحصار

و لمّا رأى المشركون إن أبا طالب لن يتخلّى عن سيدنا محمّد و انّه يتفانى في الدفاع عنه و حمايته ، قرّروا إعلان الحصار الإقتصادي و الإجتماعي على بني هاشم و قطع جميع العلاقات معهم .

وقّع أربعون من زعماء مكة صحيفة المقاطعة و علّقوها في داخل الكعبة ، و كان ذلك في شهر محرّم في السنة السابعة بعد البعثة النبوية الشريفة .

كانت قريش تتوقع استسلام أبي طالب و لكن شيخ البطحاء كان له موقف آخر .

قاد أبو طالب قبيلته إلى وادٍ بين جبلين ، و ذلك لحماية سيدنا محمّد من الاغتيال .

راح أبو طالب يتفقد " الشِعب " أي الوادي و يسدّ الثغور التي قد يتسلّل منها الأعداء ليلاً لقتل سيدنا محمّد .

و بالرغم من شيخوخته فقد كان يتناوب مع أخيه الحمزة و بعض رجال بني هاشم حراسة النبي ليلاً ، و كان ينقل فراشه من مكان إلى آخر ، فقد يترصّد الأعداء في النهار مكان النبي ثم يتسللون في الليل لقتله .

و تمرّ الأيام و الشهور و يقاسي المحاصَرون آلام الجوع و الحرمان في عزلة تامة ، فإذا جاء موسم الحجّ خرجوا ليشتروا ما يلزمهم من غذاء و كساء .

و كان جبابرة قريش و هم أثرياء مكّة يشترون كلّ ما بوسعهم من الطعام حتى لا يبقى في الأسواق منه شيء يشتريه المحاصرون .

و خلال تلك المدّة المريرة ، كان أبو طالب كالجبل لا يلين و لا يتراجع عن الوقوف إلى جانب سيدنا محمّد ، فكان مثال المؤمن الصلب الثابت الجنان ، و طالما سمعه الناس يردد أشعاراً كثيرة منها :

نصرتُ الرسولَ رسولَ المليك *** ببيض تلألأ كلمع البروق

أذبُّ و أحمي رسول الإله *** حماية حامٍ عليه شفيق

و قال مرّة مستنكراً موقف قريش :

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً **** رسولاً كموسى خُطّ في أوّل الكتب

و أنّ عليه في العباد محبّة *** و لا حيف فيمن خصّه الله في الحبِّ

كان أبو طالب يحبّ سيدنا محمّداً ، يحبّه أكثر من أولاده ، و كان ينظر إليه أحياناً و يبكي و يقول : إذا رأيته ذكرت أخي عبد الله .

و ذات ليلة جاء أبو طالب و أيقظ سيدنا محمّداً من نومه ، و قال لابنه علي :

ـــ نم في فراشه يا بني .

كان عُمر علي آنذاك ثمانية عشر عاماً .

قال علي و قد أراد أن يعرف أبوه تضحيته بنفسه :

ـــ سوف اُقتل إذن .

فقال الأب :

ـــ اصبر من أجل فداء الحبيب و ابن الحبيب .

فقال عليّ بحماس :

ـــ أنا لا أخاف الموت و إنما أردت أن تعرف نصرتي .

رَبَتَ أبو طالب على كتف ابنه بحبّ و مضى مع سيدنا محمّد إلى مكان آمن لينام فيه .

و عندما رقد سيدنا محمّد في الفراش ، راح أبو طالب و تمدّد في فراشه ليغمض عينيه هانئاً و قلبه ينبض إيماناً .

و مضت الشهور تلو الشهور و المحاصرون يزدادون جوعاً و صبراً حتى راحوا يقتاتون على ورق الأشجار ، و كان منظر الأطفال الجياع يحزّ في نفس النبي .

البشرى

و ذات يوم جاء سيدنا محمّد إلى عمّه و الفرحة تغمر وجهه المضيئ و قال :

ـــ يا عم إنّ ربي قد سلّط " الأُرضة " على صحيفة قريش فلم تدَعْ شيئاً إلاّ اسم الله .

فقال أبو طالب مستبشراً :

ـــ أربّك أخبرك بهذا ؟!

ـــ نعم .

و نهض أبو طالب على الفور و قلبه مملوء بالإيمان ، و انطلق إلى الكعبة حيث يجلس زعماء قريش في " دار الندوة " .

هتف أبو طالب بالجالسين :

ـــ يا معشر قريش .

و نهض الجالسون إجلالاً لشيخ مهيب الطلعة و تطلّعوا إلى ما سيقوله فلعلّه جاء ليعلن تراجعه و هزيمته أمام الحصار ، و لكن شيخ البطحاء قال :

ـــ يا معشر قريش : إن ابن أخي محمّد قد أخبرني بأن الله قد سلّط على صحيفتكم الأُرضة فمحت منها كلّ شيء إلاّ اسمه فان كان صادقاً فانتهوا عن قطيعتنا و حصارنا .

قال أبو جهل :

ـــ و إن كان كاذباً ؟

أجاب أبو طالب بثقة و إيمان .

ـــ أُسلّمكم ابن أخي .

هتف زعماء قريش :

ـــ رضينا و لك منّا العهد و الميثاق .

و فُتح باب الكعبة ليجدوا الأُرضة قد أكلت كلّ شيء إلاّ " بسم الله " .

و خرج المحاصرون من " شعب أبي طالب " و راح سيدنا محمّد و الذين آمنوا معه يبشّرون بنور الإسلام الوافدين لزيارة بيت الله الحرام .

الرحيل

تخطى أبو طالب الثمانين من عمره فشعر بالضعف الشديد و سقط في فراش المرض ، و كان لا يفكّر بشيء سوى سيدنا محمّد ، و كان يدرك أنّه إذا مات فانّ قريشاً لن تهاب أحداً بعده و سوف تقتل ابن أخيه .

و جاء زعماء قريش لعيادة شيخ البطحاء و قالوا :

ـــ يا أبا طالب أنت شيخنا و سيدنا ، و قد حضرك الموت فضع حدّاً للخصام بيننا و بين ابن أخيك . . و قل له أن يكفّ عنّا لنكفّ عنه ، و يدعنا و ديننا و ندعه و دينه .

نظر أبو طالب إلى أبي جهل و إلى أبي سفيان و غيرهما من زعماء قريش و قال لهم بصوت واهن :

ـــ لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمّد و اتبعتم أمره ، فأطيعوه تنالوا السعادة في دنياكم و آخرتكم .

و نهض المشركون و قال أبو جهل بحقد :

ــ أتريد أن نجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟!

و شعر أبو طالب بالحزن لموقف قريش ، و كان يحسّ بالقلق على مصير سيدنا محمّد ، فدعى بني هاشم و أمرهم بنصرة سيدنا محمّد حتى لو كلّفهم ذلك حياتهم ، فامتثلوا جميعاً .

و عندما أغمض أبو طالب عينيه ليموت مطمئن البال .

و سكت شيخ البطحاء ، أصبح جثّة هامدة لا حراك فيها ، و انخرط ابنه عليّ في بكاءٍ مرير ، و انبعثت صرخات الحزن في أرجاء مكّة ، وفرح المشركون و قال أبو جهل بغيظ :

ــ آن الأوان للإنتقام من محمّد .

و جاء سيدنا محمّد من أجل أن يودّعه الوداع الأخير .

قبّل جبينه المضيء و تمتم بحزن :

ــ رحمك الله يا عم ! ربيتني صغيراً و كفلتني يتيماً و نصرتني كبيراً فجزاك الله عني و عن الإسلام خير جزاء العاملين المجاهدين .

ثم بكى و انهمرت دموعه ، و راح يتذكّر أيام طفولته في ظلال عمّه الوارفة يوم كان صبيّاً و أراد عمّه الرحيل في تجارة إلى الشام ، فركض وراء عمّه و أخذ بزمام ناقته و قال باكياً :

ــ إلى مَن تكلني و لا أب لي و لا أُم ألجأ إليهما ؟

و تذكّر بكاء عمّه و هو يقول له :

ــ و الله لا أكلك إلى غيري .

ثم مدّ يده إليه و احتضنه و راح يقبّله و يشمّه . و انطلقت بهما الناقة في رمال الصحراء .

تذكّر سيدنا محمّد كلّ تلك الأيام بحلاوتها و مرارتها فقبّل جبين عمه المضيء ، و عانق ابن عمّه علي و راحا يبكيان معاً .

عام الحزن

و تمرّ أسابيع معدودة . و توفيت خديجة زوجة سيدنا محمّد ، فسمّى ذلك العام " عام الحزن " ، و راحت قريش تصبّ عذابها على سيدنا محمّد و الذين آمنوا معه .

و ذات يوم جاء سيدنا محمّد إلى منزله و قد ألقى السفهاء التراب على رأسه ، و راحت ابنته فاطمة تبكي و هي تغسل عنه التراب ، فمسح على رأسها و قال :

ــ لا تبكي يا ابنتي فإنّ الله مانع أباك و ناصره على أعداء دينه و

رسالته ، و جاء جبريل بأمر السماء قائلاً :

ـــ يا محمّد اخرج من مكّة فقد مات ناصرك .

و لمّا تآمرت قريش على قتل سيدنا محمّد ، جاء فتى أبي طالب علي هذه المرّة لينام في فراشه أيضاً و يفدي سيدنا محمّداً بروحه .

فعليّ هو ابن أبي طالب شيخ البطحاء .

فيما انطلق سيدنا محمّد باتجاه يثرب المدينة المنوّرة ، و هناك انبثق نور الإسلام ليضيء العالم .

و اليوم و عندما يتوجّه المسلمون كلّ عام لزيارة بيت الله الحرام فإنّهم يتذكّرون مواقف شيخ البطحاء و هو يدافع عن دين الله و رسالته .